قصة قصيرة

الغريبان

مصطفى الكيلاني

بَيْنَ الحائط والسياج الحديديّ كُتْلَةٌ من الظلّ كأنّها لِرَجُلٍ يلبس معطفاً وبيده مِحْفَظَةٌ أو ما يشبه المحفظة، وعلى الرأس قُبّعَة، والمطر خيوط ترتعش في هبّات ريحٍ شتويّة عاتية.. ترتعش الخطوات المائيّة وتَسيح على مرآة المشهد اللّيليّ كَشَريطٍ هارب.

لِنَفْتَرِضْ أنّ الكتلة لِرَجُلٍ يسير، والّذي يُبْصِر المشهد لَنْ يُفكّر في غير ذلك.

هو بقامته المديدة يسير في الشارع المتهدّم ولا يفكّر في الرجوع إلى حانة الشاطئ البعيد..

خلف الحائط كانت هي التي تسير - وهو لا يَراها - تتذكّر في صمتٍ ثقيل هتاف الواقفين أمام السيّد الخطيب داخل القاعة الكبرى ولا تراه.. تتذكّر التصفيقَ.. كلماتِ التوديع والاستقبال، الزغاريدَ، التهانيَ، العناق.. تَتَذكّر البذلة الجديدة الّتي كان يلبسها، وربطة العنق الورديّة، والقميص الأخضر المخطّط، وعينيه لا تُفارقانها، وهي تبتسم إليه كأنّها تذكّره بآخر لقاء لم يتمّ..

هو الآنَ بقامته المديدة يسير في الشارع المُقفر.. أبصرها في القاعة الكبرى من بين الواقفين تنظر إليه وتبتسم.. يتذكّر فستانها الأخضر، الوجهَ القمريّ، الحريرَ العائِمَ، وبريق العينيْن...

بين الحائط والسياج الحديديّ ترتعش كُتْلَةٌ ظلّية كأنّها لامرأة تلبس معطفاً وبيدها حقيبةُ زينةٍ، وخيوط المطر ترتعش تحت أضواء الفوانيس الشاحبة. هي بقامتها النحيلة تسير في الشارع المتهدّم ولا تفكّر في الرجوع إلى النُزُل البعيد.

تَوَقّف الرجل أو كأنّه توقّفَ لِغيبوبة خفيفة عارضة وتنفّس ملْءَ رئتيْه هواءَ خمرتِهِ وَنَفْحَ ليلتِه الهاربة. زفرةً خافتة لذيذة تسري من الجوف إلى الأنف، وموجةُ دفءٍ من قاع اللّحم تلامس الدماغ، فيتملّكه فرح الأطفال.. وَراء الحائط المتهدِّم تسير المرأة وحيدةً في الرّيح.. كُلّما سكن الخوف قلبها لَمْلَمت أوجاعها وانحدرت إلى أسافل روحها كي تقطع ليل السبيل بعيداً عن ضجيج القاعة الكبرى، وقهقهات السكارى، والخطب الحماسيّة، والتصفيق، ورعب الأقبية، والعيون، وعروض الزبائن في النُزُل البحريّة الفاخرة.. بعض القطط والكلاب السائبة.. سيّاراتُ آخر الليل، العجلاتُ، صوتُ الماء، هديرُ المحرّكات، الرّيحُ، خيوطُ المطر، البناياتُ الشاهقةُ تتراءى من البعيد حَبّاتِ ضوءٍ مُتناثِرة..

بين الحائط والموج الصاخب رصيفٌ ورملٌ.. تحلم بأن تراه، ذلك الرجل الطفل بقامته المديدة وعينيه الكستنائيّتيْن..

تسير ولا تتعب وزفرة خافتة لذيذة لِكَأْسَيْن من الوِسْكي تسري من الجوف إلى الأنف وتختلط برائحة التراب المبلّل...

بَيْن الحائط والسياج الحديديّ لم يكن الرجل يعلم بأنّ المرأة تسير قريباً منه في الاتّجاه الآخر..

كُتْلَتان من الظلّ تسيران في الشارع الطويل مدّة ساعتيْن تقريباً..

يَتعب الرجل.. تتعب المرأة.. يتوقّفان دون أن ينتبه الواحد منهما إلى الآخر..

تجلس المرأة على الشاطئ المقفِر وعيناها إلى الموج، ويعود الرجل أدراجه إلى حانة الشاطئ البعيد ليشرب كؤوساً أخرى قبل أن ينبلج نور الصباح.

القلعة الصغرى - تونس